المكتبات التراثية ببلاد القدس

"مقاربة تاريخية"

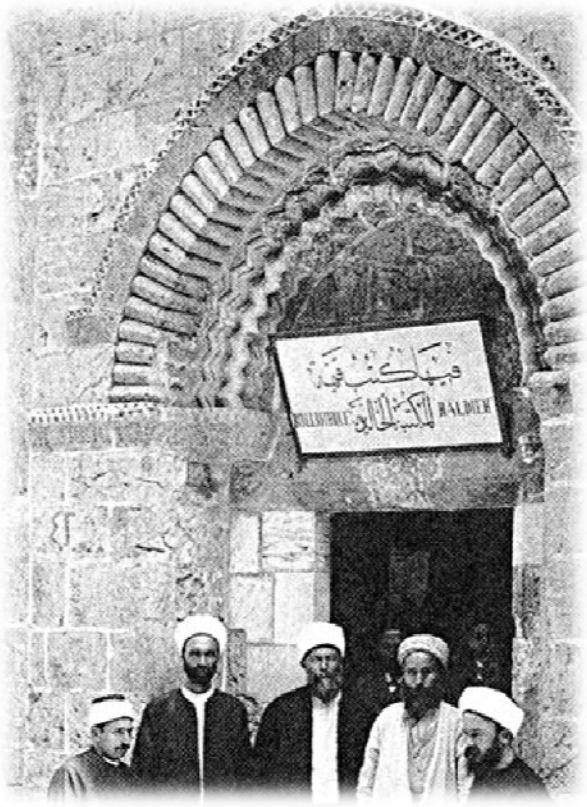

حمدادو بن عمر

أستاذ بقسم التاريخ وعلم الآثار

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

جامعة وهران – الجمهورية الجزائرية

sidahmedh1976@yahoo.fr

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حمدادو بن عمر ، المكتبات التراثية ببلاد القدس: مقاربة تاريخية.- دورية كان التاريخية.- العدد الثاني عشر ؛ يونيو ٢٠١١. ص٢٦ – ٣٠. (www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

لقد حاولنا في هذا المقال أن نبرز الدور الايجابي والهام الذي لعبه المغاربة والمشارقة على حد سواء في المحافظة على تراث بلاد القدس ، والتنويه به وبأهم المكتبات التراثية وخزائن المخطوطات النفيسة التي تحويها هذه المكتبات والخزائن.

ومما لاشك فيه ؛ أن بلاد القدس تعد بحق قبلة الحجاج وقبلة العلماء الوافدين عليها أو المارين في طريقهم عليها ، ولذا منذ أن من الله على المسلمين بفتح بيت المقدس والاهتمام البالغ يتزيد بها وبتطوير حياتها الدينية والعمرانية. فهي حسب إيمان المسلمين تظل القبلة الأولى للمسلمين وثالث الحرمين الشريفين ، وهي كذلك مسرى نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم. وقد أولى الخلفاء المسلمون مدينة القدس وأرض فلسطين ما أولوه للمسجد الحرام ومكة والمدينة ، واعتبروا أن هذه المدن الثلاث تمثل ثلاثة رموز أولى لعقيدة التوحيد الإسلامية ، فهي غير بقية المدن التي أنشأها الخلفاء كبغداد ودمشق والقاهرة والبصرة والكوفة وغيرها. فإذا كانت هذه المدن قد أنشئت بعد الفتح لتكون عواصم للخلفاء ، فقد ظلت المدينة ومكة والقدس عواصم للعلماء والحجاج والمقدسين والزائرين ، وظلت طوال العصور الإسلامية على ما هي عليه من مكانة واعتبار وقدسية. وبسبب هذا الاهتمام أصبحت القدس مدينة ذات طابع خاص ، يؤمها العلماء من كافة أقطار العالم الإسلامي فمنهم من آلى على نفسه أن يعيش فيها مرابطاً لأنها أرض رباط. ومنهم من سكنها حباً بمجاورة مسرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ومنهم من أقام فيها معلماً ، أو متعلماً في مدارسها الشرعية المنتشرة بكثرة حول حرمها القدسي الشريف. وهناك أيضًا من زارها تنقيبا عن الكتب والمخطوطات المتواجدة بمكتباتها العتيقة شاهدة عيان على حضارات إسلامية عربية مرت من هنا وتركت آثارها.

ارتبط المغاربة* بالمسجد الأقصى المبارك منذ القرن الأول الهجري ، حيث كانوا يتبركون بزيارته في طريقهم إلى حج بيت الله الحرام ، وكانوا يعتبرون الحج ناقصًا إن لم يمروا عبر القدس ، وتسمى هذه الرحلة المقدسة برحلة الينابيع ، فهي تمر من المدينة المنورة إلى القدس إلى مدينة الخليل حيث يوجد قبر سيدنا إبراهيم عليه السلام. ويتجسد هذا الارتباط المغاربي بالمسجد الأقصى في نقاط ثلاث ، أهمها:

١- الرباط الجهادي: حيث شارك المغاربة في الدفاع عن الأقصى وتحريره من الصليبيين ، وكذلك حمايته بعد التحرير.

٢- المجاورة: وهي العبادة والصلاة في المسجد الأقصى لها أجر عظيم ، فالركعة فيه بـ ٥٠٠ ركعة.

٣- العلم: عبر إلى القدس عدة علماء مغاربة وطلبة العلم ، حيث أنهم نهلوا من العلم هناك وعادوا للمغرب لإفادة الناس بعلمهم ، وقد كان ارتباط المغاربة بالإمام مالك كبيرًا ومباشرًا في الحج ، فكانوا ينتظرونه شهورًا عديدة ليطرحوا عليه أسئلتهم عبر عدة مخطوطات تكتب له ، وهذا كله سعيًا لتلقي العقيدة الصحيحة على منهج أهل السنة[1].

وقد كان للمغاربة مواقف بطولية في الحروب الصليبية في القرن الرابع والخامس الهجري ، وقد كان جيش المغاربة يمثل ٢٠ في المائة من الجيوش الإسلامية التي ذهبت لتحارب الصليبيين ، وكان العدو إذا علم بوجود المغاربة في المعارك فإنه يغير سياسيته الحربية ، أو يطلب المهادنة لما يعرفه من شراسة وشهامة المجاهدين المغاربة.[٢]

اهتمام الأمير نور الدين زنكي بالمغاربة

وقد كان الأمير نور الدين زنكي يولي اهتمامًا خاصًا بالمغاربة ، وكان قد نذر لله بعد أن أصابه في فترة مرض إن شفاه الله أن يحرر أسرى مغاربة من يد الصليبيين ، وبالفعل قام بتحريرهم بعد الشفاء ورفض أن يحرر غير المغاربة وعندما عاب عليه بعض حاشيته على تخصيصه هذا الأمر للمغاربة فقط قال لهم: إن أهل الشام يدافعون عن أرضهم ، وما أتى بالمغاربة من بلادهم البعيدة إلا الجهاد في سبيل الله[٣].

وخلال الحروب الصليبية ، كان موقف الدولة الموحدية جد مشرف للمغاربة ، حيث أرسل يعقوب المنصور الموحدي أسطولاً مغربيًا من ١٨٠ سفينة محملة بالأسلحة والذخائر والعتاد ، ممتلئة بجنود ومتطوعون وصناع المهارات وعلماء. وقد كان صلاح الدين الأيوبي أيضًا يكن منزلة عظيمة للمغاربة ، وكان كلما أراد حج بيت الله الحرام إلا وأتت معركة أرغمته على الذهاب إليها وترك الذهاب للحج ، وقد اقتدى به العديد من المغاربة حيث قالوا كيف هذا الرجل العظيم يترك الحج من أجل الجهاد ولا نقتدي به ، حيث أنهم كانوا أيضًا يغيرون مسيرتهم من الحج إلى محاربة الصليبيين.

وقد أنشأ الشيخ رائد صلاح مشروع لحج خاص عن صلاح الدين قام بالحج عنه العديد من الفلسطينيين بل مغاربة أيضًا من الخارج قاموا بحجة خالصة لأجل صلاح الدين الأيوبي. وقد رفض صلاح الدين الأيوبي عودة المغاربة بعد استقرار الوضع ووفر لهم عدة امتيازات ، وأسكنهم غرب بيت المقدس في الحي المسمى بحي المغاربة وهو مجمع عقاري ضخم يضم ١٣٥ دار سكنية وفيها المدرسة الأفضلية وقد بناها السلطان الأفضل وهي متخصصة بدراسة الفقه المالكي ، وقد نسفه الصهاينة سنة ١٩٦٧م[٤].

وقد أسكنهم صلاح الدين في هذه المنطقة بالذات لحمايته من الجهة المنبسطة طوبوغرافيًا ، والموالية للصليبيين حتى إذا ما كرروا محاولات الغزو عبر البحر الأبيض المتوسط ، وقد أجاب من سأل عن تصرفه بقوله: "أسكنت بالجهة الغربية من يثبون في البحر ، ويفتكون في البر المغاربة ، أسكنتهم البطن اللينة ، فلا خيراً منهم لحماية بيت المقدس".[٥]

العياشي في القدس

لم يكثر العياشي[٦] من وصف مدينة القدس ، فلم يتحدث عن أسواقها وتجارها وجالياتها وحرفها ، وإنما وصف المسجد الأقصى ، وتحدث ، كعادته ، عن بعض علماء البلاد ، ولاسيما بعض المتنفذين منهم ، كما تحدث عن قبة الصخرة ، وزاوية المغاربة ، وبعض أبواب المدينة. وقد خص العياشي المسجد الأقصى بأوصاف كثيرة. فهو مسقف كله ، وهو رفيع البناء ، وتصلى فيه الجمعة ، وفيه مكان معلوم صلى فيه الخليفة عمر بن الخطاب ، وفي ركنه الشرقي مزار يقال له مهد عيسى ، وله طاقات واسعة يشرف منها الناظر على الوادي الذي يسمى وادي جهنم ، وتحت المسجد الأقصى مسجد آخر واسع جداً مرفوع على أساطين من حجارة منحوتة ، وهي من البناء السليماني. ويلخص العياشي رأيه فيقول: «وبالجملة ، ففرائب الصخرة والمسجد الأقصى وما حولهما من المزارات شيء كثير»[٧]. ويعترف أن هناك تآليف كثيرة حول الموضوع ، ولكنه يقتصر في روايته على ما شاهده شخصياً ("بعض ما رأيناه وزرناه").

ظهرت فكرة إنشاء المكتبات العامة ببلاد القدس في وقت مبكر ، فتسابق السلاطين والأمراء ، والحكام والوجهاء في إنشاء خزانات للكتب تحمل اسمهم أو اسم المكان الذي أنشأت فيه ، فشيدوا هذه الخزائن ودور الكتب وأوقفوا وحبَّسوا الكتب عليها. واهتموا بوجهٍ خاص في البقاع الطاهرة والأراضي المقدسة فأوقفوا على الحرمين الشريفين وثالث المسجدين—المسجد الأقصى- كتبًا مهمة بقيت وما زالت مصدراً مهمّاً ونبعاً صافياً ينهل منه الناس ويكرعون.

وأصبح العلماء والأدباء والمؤلفون يهدون مثل هذه الخزائن العامة أهم كتبهم ، وكانت دواوين الإسلام وكتب الشريعة تُنسخ وتهدى لمثل هذه الخزائن. ولقد ظهرت في فلسطين عدّة خزائن ومكتبات عامة أنشأها سلاطين وأمراء تلك البقاع وأوقفوا وحبسوا عليها نفائس الكتب والمخطوطات وروائع المصنفات والمؤلفات.

واشتُهر عن بلاد الشام — قديماً وحديثاً — الاهتمام بالتراث ، واعتُبرت من أهم البلاد العلمية التي يرحل إليها العلماء ، وكانت المكتبات الخاصة منها والعامة متوفرة يسعى الناس لإنشائها ولو على حساب أقواتهم ، فقد "اعتاد الناس من بلاد الشام أن يروهم يحيون على الكفاف ، وعرفوا عنهم أنهم إذا ماتوا لا يورثون ذهباً ولا فضةً ولا عقارات ، جُلّ ما يتركونه — إذا تركوا — مكتبة عامرة في دار متواضعة"[٨].

وقد كان لفلسطين ومكتباتها العامة منها والخاصة نصيباً وافراً من هذا التراث — من قبل أن يدهمها السيل وتغشاها النوائب ويفترسها العدو الصهيوني — والذي قُدّر هذا النتاج بحوالي (٥٠٠٠٠) خمسين ألف مخطوطة والذي بقي منه -بعد الاحتلال الصهيوني- لم يتجاوز ثمانية آلاف (٨٠٠٠) مخطوط.

دور العلامة عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني المغربي في حفظ تراث القدس

هو شيخ شيوخنا العلاَّمة الكبير والمسند الشهير المحدِّث الحافظ السيد محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكَتّاني الحسني الفاسي ، ولدَ بفاس سنة ١٣٠٢هـ ونشأ نشأةً علمية ؛ فقد تلقى العلم عن عدد من العلماء ، منهم والده ، وأخوه السيد محمد ، وخاله السيد جعفر بن إدريس الكتاني ، وابن خاله السيد محمد بن جعفر الكتاني ، والشيخ أحمد ابن الخياط ، وغيرهم. رحلَ في طلبِ العلم ولقاء الشيوخ والمسندين إلى عدَّة بلدان ، منها: الحجاز ومصر والشام وتونس والقدس ، وروى عن أكثر من خمسمائة نفس ، وله ما يزيد على ثلاثمائة مؤلَّف. وتوفي بفرنسا سنة ١٣٨٢هـ .أما عن مكتبته: يصفها لنا نجلهُ الأديب السيد أبو بكر فيقول: (جمعَ مكتبةً سرت بحديثها الركبان من أقاصي الشرق إلى أقاصي الغرب بهمتهِ العالية وولوعه العجيب في هذا الباب). ثم قال: (وحازت مكتبته أكبر شهرة في العالم الإسلامي والغربي واحتاج إليها العلماء والأدباء ورجال الدولة"[٩].

ويقول المؤرخ العلاّمة خير الدين الزركلي: (كان جمَّاعةً للكتبِ ، ذخرت خزانته بالنفائس ، وضُمَّت بعد سنوات من استقلال المغرب إلى خزانة الكتب العامة في الرباط ؛ فرأيتُ على كثيرٍ منها تعليقات

بخطه في ترجمة بعض مصنفيها أو التنبيه على فوائد فيها"[١٠]. وقال العلاَّمة السيد إدريس القيطوني: "جمعَ مكتبةً عظيمةً كمًّاً وكيفاً فيها من نوادر المخطوطات ما يعجز فرد عن جمعه ولا تكاد تجد كتاباً فيها على كثرةِ ما فيها لم يطالعه ويُعلق عليه بخطه". وقال لي شيخنا الأديب عبدالواحد الخريف:"زرتُ السيد الكتاني ورأيتُ مكتبته كأنها مكتبة الدولة في الطول والارتفاع". ويتحدث العلاَّمة الأستاذ محمود محمد شاكر عن همة السيد عبدالحي بقوله:"أُتيح له أن يجمع مكتبة في داره بفاس تُعدُّ من أغنى المكتبات الخاصَّة وأنفسها في العالم العربي كله ، فيها من النفائس والنوادر والغرائب ما لا يوجد في غيرها. وهو لا يكاد يسمع بكتابٍ نادرٍ حتى يسارع إلى استنساخهِ أو تصويره بالفوتوغراف. وها هو قد نزلَ مصر فجمع من شوارد المخطوطات ونوادرها أشياء كانت بين سمع دور كتبنا وبصرها ، ثم غفلت عنها"[١٠].

ومن هنا كان لهذه المكتبة أهمية خاصة في تاريخ المغرب العربي التراثي يعبر عن ذلك ما قاله أحد المختصين في علم الوراقة مجيزنا العلامة الموسوعي محمد المنوني انفرد في الشمال الإفريقي بحس وراقي خاص ، أكسبه معرفة واسعة بخطوط العلماء ، أندلسيين ومغاربيين ومشارقة ، مؤلفين وسواهم ، قدماء ومحدثين ، لا يجارى في ذلك بين أهل عصره ، ومؤلفاته وكتبه شاهدانِ ببعض ذلك). وكذلك قول الدكتور محمود الطناحي في مقاله "قضية التواصل بين المشرق والمغرب": "كان هذا الرجل شغوفاً بالكتب مُولَعاً بجمعها ، مع علمٍ غزير واطلاع واسع ، وقد وقف حياته على الكتب ، ونذر نفسه للعلم".

وقال الأستاذ محمد حجي[١١] في تقديمه لفهرس مخطوطات الخزانة الكتانيَّة الذي صنعه العلاَّمة محمد المنوني رحمه الله: (تتناول مخطوطات الخزانة الكتانيَّة مختلف الموضوعات التي عرفها المسلمون كعلوم القرآن والحديث والتوحيد والفقه واللغة والنحو والسير والتاريخ والمنطق والحساب والفلك والتنجيم وما إلى ذلك ، ويغلب عليها طابع الحديث والسير والتراجم نظراً لتخصص صاحبها وتأليفه في هذه الفنون. وإذا كان الفقه المالكي هو الغالب فيها فإن هناك مؤلفات غير قليلة في فقه المذاهب الأخرى ، خاصَّة الشافعي والحنفي ، وتتنوع خطوطها من مغاربية حضرية وبدوية إلى أندلسية ومشرقية ، بعضها في غايةِ الجمالِ والأناقةِ والزخرفةِ). ويكملُ الأستاذ محمد حجي حديثه فيقول: (ومن نوادر مخطوطات الخزانة الكتانية: مؤلفات أصلية كُتبت على رق الغزال في القرنين الرابع والخامس ، منها جزء من تاريخ أبي بكر أحمد بن زهير بن حرب انتُسخ عام ٣٢٢هـ ، وأواخر كتاب في الفقه كُتبَ عام ٣٨٤هـ ، وخمسة كُتب كانت في حوزة ثاني ملوك المرابطين أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين..."[١٢].

ويعد الشيخ عبد الحي الكتاني زيادة على ذلك من العلماء المغاربة الكبار ومن منقبي وباحثي التراث المخطوط في العالم العربي والإسلامي على وجه الخصوص ، ولا أدلّ على غزارة علمه ووفرة شيوخه كتابه المشهور شرقا وغربا: "فهرس الفهارس والإثبات"[١٣] ، وكان الشيخ متضلعا وعالماً بالكتب ، خبيراً بأماكن وجودها وله شغف عظيم بالمطالعة فيها ويملك همّة عالية في رحلاته للمدن الإسلامية والعربية ومقابلة العلماء واستجازة أهل العلم المسْنِدين فيها.

ولعل من أهم المدن التي زارها فلسطين فدخل بيت المقدس وطاف بها وبمكتباتها ودرّس كتاب " الفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا ببيت المقدس[١٤] ، وكذلك دخل مدينة الرملة وزار أحد أحفاد الشيخ العلامة مفتي الرملة خير الدين الرملي وهو الشيخ مفتي الرملة أبو المحاسن يوسف بن قاضي الرملة أحمد بن عبد الرزاق بن أحمد بن مفتي القدس نجم الدين الصغير بن الشيخ خير الدين ، يقول الكتاني:" لقيته بالرملة وعليه بها نزلت عام ١٣٢٤هـ وأجازني وأجزته"[١٥] ومن المُلَحِ أنه درّس سنن النسائي في ضريح الإمام النسائي في مدينة الرملة حيث وفاة النسائي بها[١٦].

يقول الشيخ الكتاني: "وقد ظفرت في المكتبة الخالدية ببيت المقدس لما زرته عام ١٣٢٤ بمجموعة بخط المترجَم له الشيخ تقي الدين السبكي اشتملت على عدة مؤلفات منها: الأدلة في إثبات الأهلة ، ورسالة في مضار القصيدة النونية المتضمنة الردّ على الأشاعرة وهي ٢٥ ورقة في القالب الكبير كتبت سنة ٧٤٩ والاعتبار ببقاء الجنة والنار كتبت ٧٤٨ تتضمن تضليل من قال بفناء النار من أهل عصره وغير ذلك وهي مجموعة قيمة لا ثمن لها من النفاسة بمكان"[١٧].

جهود العلامة المغربي محمد المنوني في إحياء تراث القدس

يقول الأستاذ محمد المنوني عن مخطوطات ومكتبات القدس ، وعن فهرس مخطوطات المكتبة الخالدية والمكتبات الملحقة بها: "أعده السيد أوب الخير محمد الحبال ، وهو مكتوب بالآلة الكاتبة سنة ١٣٧٨هـ ، وهي سنة تأسيس المكتبة ، وقد رتبت الكتب الأصلية على عشرين فنا". ثم كتب يوسف باشا الخالدي: "مرتبة على عشرة فنون" ، ثم كتب روحي الخالدي ، ثم الكتب المهداة ومجموعها يزيد على ألف كتاب ، ولهذا الفهرس شريط مصور في معهد المخطوطات العربية رقم:٣٣. كما يضيف الأستاذ المنوني عند معرض حديثه عن نفائس الخزانة الخالدية في القدس الشريف بقوله:" وصفها الأستاذ عبد الله مخلص بمجلة المجمع العلمي العربي". وينوه الأستاذ محمد المنوني بدور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها ، بقوله:" دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها للأستاذ محمد أسعد طلس ، بمجلة المجمع العلمي العربي"[١٨].

مساعي الشيخ العلامة طاهر الجزائري[١٩] في الحفاظ على مكتبات القدس

ولا بأس أن نضيف إلى العلماء المغاربة عالم مخضرم شطره الأول الضفة المغاربية ، وشطره الثاني الضفة المشرقية هو الشيخ طاهر الجزائري (ت١٣٣٨هـ/١٩٢٠م) علامة دمشقي كبير وأحد روّاد النهضة الفكرية الحديثة في بلاد الشام وأبرز أعضاء مجمع اللغة العربية في دمشق. "اهتم بالمخطوطات العربية وكان — منذ صغره — مولعا باقتنائها ، وعرف الأصيل منها والنادر ، كما عرف أماكنها في الخزانة الشرقية والغربية ... وإليه يرجع الفضل في إنشاء المكتبة الظاهرية بدمشق عام ١٢٩٦ هـ وقد أصبح فيما بعد مديراً لها...وهو من أقدم مَنْ بحث في المخطوطات في فلسطين ، فقد امتد نشاطه إليها وأولاها العناية الفائقة وعرّف بها وغليه يرجع الفضل في إنشاء المكتبة الخالدية في القدس ، وبهذا حفظ هذه المخطوطات من الضياع ، ويسّر على طلبة العلم درب البحث والانتفاع بها...ويعتبر الشيخ طاهر أول من وضع فهرساً لمخطوطات المكتبة الخالدية بمعونة الشيخ راغي الخالدي وأبي الخير محمد بن محمود الحبَّال الدمشقي بعنوان " برنامج

الخالدية العمومية" ، وإن خلا من أسماء صانعيه وطبع في القدس في عام تأسيس المكتبة ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠ م"[٢٠].

يقول الدكتور وليد أحمد سامح الخالدي:"وحدث بُعيد افتتاحها – أي المكتبة الخالدية – أن أقبل إلى القدس العلامة الشيخ طاهر الجزائري ناظر المكتبة العمومية الدمشقية منفياً من دمشق بأمر من السلطة العثمانية ، وكان الشيخ طاهر "صديقًا حميمًا" للحاج راغب ، فطلب منه الحاج راغب أن يساعده في تصنيف موجودات المكتبة وتبويبها فاقترح عليه الشيخ طاهر دعوة أبي الخير محمد محمود الحبّال صاحب جريدة "ثمرات الفنون" البيروتية ، الذي يصف نفسه "بالدمشقي محتدًا والبيروتي منشأ ومولدًا "وذلك للقيام بمهمة وضع برنامج للمكتبة... ويبلغ مجمل عدد الكتب الوارد ذكرها في برنامج الحبّال ١١٥٦ كتاباً (أي مجلداً) منها حوالي (٦٨٥) مخطوطة والباقي مطبوع ، يضاف إليها (٢٤) كتاباً خطياً جمعها الشيخ طاهر الجزائري من الدشت وأثبتها الحبّال في مؤخرة البرنامج...ويروي الحبّال أن الشيخ طاهر الجزائري قرّظ المكتبة بقوله:

أقول وقد عاينت كتباً نفيسة *** تروق ذوي الألباب وَهْيَ منى النفسِ
أيا طالباً أقصى المعارف راغباً *** لنيل العلا بادر لمكتبة القدسِ"

ولقد لعبت هذه الخزائن دورًا هامًا في إحياء المعارف والعلوم في القرنين الأخيرين (الرابع عشر والخامس عشر) الهجريين ، وكانت من الأهمية بمكان ، بل كانت محط أنظار الباحثين يرحلون إليها ويضربون لها أكباد الإبل لمعرفة كنوزها ونوادرها ونفائسها. ومن بين الخزائن الهامة بالقدس "خزانة آل الدجاني" ، حيث نجد طرازي يقول أثناء حديثه عن خزانة آل الدّجاني في يافا فقال: "...لا نعرف من خزائن الكتب في يافا أهم من خِزانة آل الدجاني وما برحت هذه الخزانة منذ أواسط القرن الثالث عشر للهجرة منهلاً للوراد وكعبة للقصاد..."[٢١] ولا أنسى أن أذكر قصة مراسلة علامة العراق محمود شكري الألوسي رحمه الله لاستعارة بعض المخطوطات في فلسطين ، يقول مؤرخ القدس عبد الله مخلص رحمه الله " جاءني مرّة أحد الوراقين من القاهرة وقال لي أن علامة العراق السيد محمود شكري الألوسي كتب إليه يعلمه بأن في مكتبة الشيخ نعمان هاشم بنابلس نسخة من كتاب العقل والنقل – تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية – وأشار عليه بالبحث عنها وطلب إلي أن أساعده على تحقيق هذه الأمنية ."[٢٢] بل كان العلماء والأدباء يُراسلون أرباب وأصحاب هذه الخزائن لاستعارة بعض هذه النفائس ، فيذكر طرازي أيضاً أثناء حديثه عن نفس الخزانة السابق ذكرها فيقول: "ونضيف إلى ذلك أبياتاً بعث بها الحاج حسين بيْهم البيروتي[٢٣] إلى صديقه الشيخ مصطفى الدجاني مفتي يافا ، وقد عرّض الناظم فيها بحاجته إلى استقراض مخطوطة كتاب "العقد الفريد" في الخزانة الدجانية فقال:

ألمعيٌّ في زوايا فكره *** كم خبايا لمعت للمستفيد
قد جمعتم كل علم مثلما *** جمع الأشياء قرآن مجيد
فلهذا أرتجي من فضلكم *** إن أردتم قرضة العقد الفريد
ثم من بيروت يسعى مسرعاً *** فيوافيكم قريباً في البريد
واجعلوا عهدي كصكّ عندكم *** وحسن شكره دوماً يزيد

نماذج من خزائن التراث المخطوط بالقدس

خزانة العلامة خليل الخالدي: فقد وصفها العلامة أسعد طلس رحمه الله بقوله: "إن الكتب التي جمعها هي من أنفس المخطوطات العربية."[٢٤] وقال عنها أديب فلسطين الكبير عجاج نويهض (كان شديد الحرص على مكتبته وداره قرب الحرم الشريف في القدس ، فكان يفضل أن يجعل كتبه في صناديق لا على الرفوف ، وإذا أعارك كتاباً فلا يعيرك إياه إلا إذا وثق أنك تعيده إليه ، وكان يؤثر إذا سألته مسألة أن يظلّ هو وراء هذه المسألة ينقِّب عنها في الكتب حتى يستخرج الجواب عليها على أن يعيرك الكتاب فكان الكتاب بين يديه بمثابة ولدٍ له)[٢٥].

ويقول كامل العسلي (إن مكتبة الشيخ خليل الخالدي كان مجموع ما فيها حسب الحجة الوقفية ٣٤٨٠ كتاباً و٥٠٠ مخطوط لم يبق منها الآن سوى ٧٥٩ كتاباً و١٠٠مخطوط)، ومنها خزانة العلامة الشيخ البديري(محمد بن بدير بن محمد المعروف بابن حبيش البديري ١٢٢٠هـ) في القدس والتي وصفها طرّازي بقوله (إن مخطوطات هذه الخزانة بلغت ألف مجلد)[٢٦].

ومنها خزانة العلامة الأديب إسحاق موسى الحسيني في القدس ، يقول الأستاذ المؤرخ محمد عمر حمادة (وبعد نكبة فلسطين ١٩٤٨ م نزح عن وطنه فلسطين إلى حلب في سوريا مخلفاً في بيته بالقدس مكتبة غنية بأمهات المراجع الأدبية والتراثية)[٢٧]. ويقول الأستاذ فؤاد عبيد: "كانت مكتبة د. الحسيني في القدس تضم زهاء أربعة آلاف كتاب من بينها الكتب التي عرضت في معرض الكتاب الفلسطيني الذي نُظّم في القدس سنة ١٩٤٦ م إلا أن هذه المكتبة قد احترقت أثناء حرب ١٩٤٨ م "[٢٨].

ومنها خزانة أديب فلسطين محمد إسعاف النشاشيبي رحمه الله (١٩٤٨م) والتي حوت بين مخادعها ورفوفها نفائس ونوادر تشد لها الرحال وتضرب لها أكباد الإبل ، يقول الأستاذ أنور الجندي رحمه الله (ولقد كان قصر النشاشيبي في القدس ملاذاً للأدباء ومجمعاً للأدب وبه مكتبة من أنفس الكتب وأندرها)[٢٩]. وقال عنها رصيفه الأديب خليل السكاكيني بقوله " ومكتبته لا تشبهها مكتبة)[٣٠].

وكذلك خزانة الأستاذ خليل بيدس المقدسي في القدس ، يقول الأستاذ يعقوب العودات الشهير بالبدويّ الملثم: " وفي بيت المقدس أسس خليل مكتبة فريدة حوت مخطوطات قديمة العهد وكتباً ثمينة ، لكنه أُرغم على تركها في منزله بالقدس لتأخذها العصابات الصهيونية غنيمة باردة عندما اغتصبت فلسطين في أيار ١٩٤٨ م "[٣١]. ومنها خزانة آل قطينة في القدس: (وتسمى العائلة الحنبلية لأنهم العائلة الحنبلية الوحيدة في القدس). يقول عنها فيليب طرازي (هذه المكتبة تخص أسرة قطينة بالقدس الشريف وتشتمل على أربعة آلاف مجلد في جملتها ثمانمائة مخطوطة ..).[٣٢]

خاتمة

وصفوة القول ؛ أن هذه المكتبات إنما هي في الحقيقة جزء من تراثنا العربي ، ينم عن مدى تكريس علمائنا لجهدهم الفكري من أجل خدمة المعرفة الانسانية ككل عمومًا ، وخدمة تراثنا على وجه الخصوص. إن دراستنا هذه تحاول رفع اللثام عن جوانب مهمة تعكس الذهنية العقلية الأصيلة والنفسية لمجتمعنا العربي ، وكما ذكرنا آنفا فإن ظاهرة المكتبات التراثية كما حبذت أن أسميها ، تجعلنا نضع ظاهرة الاهتمام بالمكتبات والكتب والمخطوطات على اختلاف فنونها

وعلومها ؛ وتنوع مناهلها ومشاربها ضمن أولوياتنا البحثية الأكاديمية اليوم. ونحاول التنقيب عن مثل هذه المكتبات التي كانت في زمن ما إشعاعًا فكريًا يضيء ما بين المشرق والمغرب ، إلى جانب وضع ظاهرة الاهتمام بالمكتبات التراثية في سياق ظاهراتي نحلل فيه الظاهرة وفق شروط واقعية قابلة للملاحظة ، ودون الدخول في تفسيرات قيمية ، أو تبني أحكامًا مسبقة تحكم على الظاهرة من موقع متعالي.

وأملنا في الأخير أن تكون هذه الصفحات التي هي في الحقيقة فيض من غيض وجزء من كثير ، تفتح للباحثين تفسيرات أولية لهذه الظاهرة المكتبية التي تكاد تكون في سائر البلدان العربية ، وهذا من أجل تسليط الضوء والانكباب على دراسة ظاهرة الاهتمام بالمكتبات التراثية دراسة سوسيولوجية وأنثروبولوجية.

الهوامش :

*ومن دلائل التعلق الكبير للمغاربة بالمسجد الأقصى المباركة ، قصة امرأة اسمها : أم قاسم المرادية ، وهي امرأة غنية من مدينة آسفي قامت بعمل لم يقدر عليه الرجال ، فقد سوت طريق من آسفي إلى مكة المكرمة مرورا ببيت المقدس إلى المدينة المنورة ، وقد وضعت محطات كالتي نجدها الآن في الطرق السيارة * باحات الاستراحة * ، حيث حفرت في كل ٥٠ كلم بئرا وبنت منزل من طابقين ، ووضعته وقفا للمغاربة الحجاج حيث يبيتون مجانا في هذه المحطات.

١. تقرير عن محاضرة ألقاها الأستاذ أبو زيد التي ألقاها بمكتب الفرقان بالدار البيضاء يوم الأحد : ٤ /٢٠٠٧/٣

٢. المرجع نفسه ، ص:٢

٣. المرجع نفسه ، ص:٢

٤. المرجع نفسه ، ص:٣

٥. عبد الحي الكتاني ، فهرس الفهارس والإثبات ج١ ، ص:١١.

٦. ترجمة "العياشي": في "الأعلام" للزركلي ، ج ٤. وبناء عليه ، إنه ولد سنة ١٠٣٧ هـ/ ١٦٢٧ م ، وتوفي سنة ١٠٩٠ هـ/ ١٦٧٩ م. وتوجد ترجمته في عبد الحي الكتاني (فهرس الفهارس ، ج ٢ ، ص. ٢١١)؛ وصفوة من انتشر ؛ ومناقب الحضيكي ؛ وخلاصة الأثر ، ج ٣ ، ص. ٧٠ ؛ وإعلام النبلاء ، ج٦ ، ص. ٣٨٧ ؛ ودليل مؤرخ المغرب ، ج ١ ، ص. ٢٤٧ ؛ وبركلمان ، ج٢ ، ص. ٣٥٧. وقد ترجم له أيضاً عبد الرحمن الجبرتي في عجائب الآثار ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص. ١١٥.

٧. ينظر:أبو القاسم سعد الله ، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون رائد السلفية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٦ ؛ وكذلك تاريخ الجزائر الثقافي ، ج١ ، ط ٢ ، الجزائر ، ١٩٨٥.

٨. تاريخ علماء دمشق ، ج١ ، ص:١٧.

٩. عبد الحي الكتاني ، فهرس الفهارس والإثبات ، ج١ ، ص:٣٨٦.

١٠. خير الدين الزركلي ، الأعلام ، ج٦ ، ص:١٨٨.

١١. فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بالخزانة العامة بالرباط الخزانة الكتانية ، ص:٧.

١٢. مما يمكن الإشارة إليه هو أن من أندرِ المكتباتِ الخاصةِ في العالمِ الإسلامي ، مكتبةُ الشيخِ عبد الحي الكتاني ، التي حوَت جميعَ المعاني ، ولم يكن لها في عصرها ثان. مكتبتهُ من النوادر بلا نزاع ، وذكرها في الأرضِ قد ذاع وشاع. عَشِقَ جمعَ الكتاب ؛ فجمعَ العجَبَ العُجاب ، ولم يكن مجردَ جامع! بل كان بالاطلاع واسعاً. وقبلَ البدايةِ عن الحديثِ عنها أذكرُ نبذةً مختصرةً عن صاحبها. وقد قال عنها الأستاذ عبد الله الجراري: (وخزانته الكتانيَّة تُعدُّ الأولى من نوعها ، وقد تولت الدولة المغربية أمرها بعدَ الاستقلال فنقلتها إلى الخزانة العامة بالرباط ، وجعلت لها جناحاً خاصاً هناك".المرجع نفسه ، ص:٧.

١٣. عبد الحي الكتاني ، فهرس الفهارس والإثبات ، ج١ ، ص:٣٨٦.

١٤. المرجع نفسه ، ج١ ، ص:٣٨٦.

١٥. المرجع نفسه ، ج١ ، ص:٣٨٦.

١٦. المرجع نفسه ، ج١ ، ص:٣٨٦.

١٧. المرجع نفسه ، ج١ ، ص:٣٨٦.

١٨. محمد أسعد طلس ، مقالات عن "دور كتب فلسطين ونفائس مخطوطاتها" في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد ٢٠ ، ١٩٤٥ ؛ والمجلد ٢١ ، ١٩٤٦ ، وراجع: كتاب محمد المنوني ، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ، سلسلة الدراسات الببليوغرافية. مطبعة فضالة المحمدية. المملكة المغربية.ط١٩٨٩.ج١.ص:١٢٤.

١٩. هو طاهر بن محمد صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني ، المشهور بالجزائري. هاجر والده من الجزائر إلى دمشق سنة ١٢٦٣هـ (١٨٤٧)، وكان من بيت علم وشرف ، تولى قضاء المالكية ، حيث كان فقيهها في دمشق ومفتيها في الشام. ولد طاهر الجزائري في دمشق سنة ١٨٥٢ ، وتعلم في مدارسها ، حيث دخل المدرسة الجقمقية الإعدادية وتتلمذ على الأستاذ عبد الرحمن البستاني ، فأخذ عنه العربية والفارسية والتركية ومبادئ العلوم ، كما قرأ على أبيه أيضاً ، ثم اتصل بعالم عصره الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني ، ولازمه إلى أن وافاه الأجل.أتقن الجزائري اللغة العربية وأتقن الفارسية والتركية ، وتعلم الفرنسية وتكلم بها ، وكذلك تعلم السريانية والعبرانية والحبشية ، وكان يعرف القبائلية البربرية لغة موطنه ، وتعلم كثيراً من الخطوط القديمة كالكوفي والمشجر والعبراني غيرها ليتسنى له دراسة الآثار. كما شغف بالكتب المطبوعة والمخطوطة ، وعرف الجيد من أصنافها ، كما عرف طبقات المؤلفين وتراجم الرجال ، وأماكن المخطوطات والنسخ المتفرقة منها في الخزائن الشرقية والغربية ، وساعده على إتقان ذلك قوة حافظته.

٢٠. عصام الشنطي ، جهود مبكرة للتعريف بمخطوطات فلسطين ، " ندوة التراث العربي المخطوط في فلسطين " نشر معهد المخطوطات العربية في القاهرة ص:١٣٤.

٢١. فليب طرازي ، خزائن الكتب العربية ، ج١ ، ص:٢٩٥.

٢٢. مجلة الزهراء ، مجلد ١ ، ج٨ ، صحيفة رقم:٥٠٤.

٢٣. راجع ترجمته في: كتاب " أعيان القرن الثالث عشر " لخليل مردم بك صحيفة ٢٣٣.

٢٤. المخطوطات العربية في فلسطين للمنجد ، ص ص ١٠-١١.

٢٥. عجاج نويهض ، رجال من فلسطين ، ص:٢٤.

٢٦. كامل العسلي ، معاهد العلم في بيت المقدس ، ص:٣٧٥.

٢٧. محمد عمر حمادة ، أعلام فلسطين ، ج١ ، ص:٢٩٤.

٢٨. البدوي الملثم ، من رجال الفكر والأدب في فلسطين ، ص:٦٨.

٢٩. أنور الجندي ، المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام ١٨٤٠-١٩٤٠ ، ص ص:٣٦٢-٣٦٣.

٣٠. البدوي الملثم ، المرجع السابق ، ص:٦٢٧.

٣١. أنظر مقالنا بمجلة المؤرخين المغاربة ، جمعية المؤرخين المغاربة ، الرباط ، ع٤٦.

٣٢. فليب طرازي ، خزائن الكتب العربية في الخافقين ، ج١ ، ص:٢٩٣.

الأستاذ حمدادو بن عمر في سطور:

(١٩٩٤-١٩٩٨) المرحلة الأولى للتكوين في التعليم العالي بجامعة وهران ، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية. (جوان ١٩٩١) دبلوم ليسانس "أربع سنوات" في التاريخ والحضارة الإسلامية ، العام. (١٩٩٨- ١٩٩٩) معلم بمدرسة بوفاطيس بنات ١ ، أكاديمية وهران. (٢٠٠٥-٢٠٠٦) تربص بيداغوجي في مادتي "التاريخ والجغرافيا" - مستوى التعليم الثانوي- بثانوية الخوة والي عين النويصي ، أكاديمية مستغانم. (١٩٩٩-٢٠٠٣) مرحلة الدراسات العليا ، وهران / الجزائر. (سبتمبر ٢٠٠٣) دبلوم الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ، وهران. (٢٠٠٣- ٢٠١٠) أبحاث دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية.